محاضرات مادة: نظرية العلاقات الدولية

السنة الثانية ليسانس – علوم سياسية

الأستاذ: *عبد الغاني دندان*

المحور الثاني: المحاضرة: 3

النظرية الواقعية في العلاقات الدولية 2

التحول البنيوي في نظرية العلاقات الدولية: الواقعية الجديدة وفوضوية النظام الدولي.

مع ازدياد مستوى التبعية المتبادلة المؤسسية والاقتصادية بين الدول، كان لزاما على الواقعية أن تجنح للتعديل. ويعد مؤلف "كينيث والتز"Kenneth Waltz الموسوم بـ Theory of international politics [يرمز له اختصارا بـ:TIP] المحاولة النظرية الأوسع نطاقا لإعادة توطيد المنطلقات المركزية للواقعية. فالعوائق البنيوية للنظام العالمي نفسه هي التي تفسر إلى حد بعيد سلوك الدول وتفرض النتائج. وتجادل الواقعية البنيوية بأن التغيرات في سلوك الطرف الفاعل تفسر من منطلق النظام ذاته، وليس من منطلق الاختلاف في الصفات التي يمكن للفاعلين إظهارها.[1]

1. مسلمات الواقعية البنيوية وتطبيقاتها التنظيـرية:

لقد أضافت نظرية "والتز"Waltz عن السياسة الدولية بعدا هاما في التحليل الواقعي. وذلك بتركيزها على الدور الحاسم لطبيعة النظام الدولي كـ"بنية مستقلة"[2] عن البنى المركبة له في تفسير العلاقات الدولية. أي أن لهذا النظام برأي "والتز"Waltz وجود في حد ذاته.

> "[...]فوحدها المقاربة التي تعزل النظام عن وحداته المكونة له الكفيلة بمنحنا نظرية للسياسة الدولية تسمح بإرساء قواعد هذا الحقل المتميز."[3]

كما أن وضع الدولة وتموقعها في بيئة السياسة الدولية، أهم في تفسير سلوكياتها الخارجية من ميزاتها الداخلية وتفاعلاتها مع بقية الدول الأخرى. بالإضافة إلى سماحه بتحديد الفرص المتاحة كما الضغوط والقيود والتأثيرات التي تمارس على الدول وتتحكم في تصرفاتهم. وعليه فـ"والتز" Waltz يتَّهم نظريات العلاقات الدولية التي تركز على مستويَيْ التحليل الفردي والوطني بتقديمهما تفسيرات اختزالية Reductionist كما

> "يشبه النظام الدولي بالسوق، ويميز بين التغير داخل بنية النظام الدولي [أي تغير وحداته] وتغير بنية النظام الدولي ذاتها. فتغير هذه البنية هو تغير في عدد القوى الكبرى أو في قدراتها. وهكذا فإنه قبل انهيار الاتحاد السوفيتي لم تتغير بنية النظام الدولي إلا مرة واحدة خلال أربعة قرون. وذلك عندما تحول من تعدد الأقطاب إلى القطبية الثنائية بعد الحرب العالمية الثانية. ويرى والتز أن هذا التحول أثر إيجابيا في الاستقرار والسلم الدوليين، لأن نظام القطبية الثنائية يقود إليهما أكثر من نظام تعدد الأقطاب."[4]

وتعتبر الطبيعة الفوضوية للنظام الدولي المتغير الأكثر أهمية في تفسير الظواهر الدولية، بالإضافة إلى مفهومي "توزيع القوة"و "الاختلاف الوظيفي".

> "ولا يقصد أتباع نظرية الواقعية الجديدة بذلك القول: أنه نظام مشوش بالضرورة. بل إن الفوضى تعني أنه لا توجد هناك سلطة مركزية قادرة على ضبط سلوك الدولة."[5]

وهي كما يصفها "روجي"Ruggie "البنية العميقة" للنظام الدولي. وعليه فالواقعية الجديدة تؤكد على بنية النظام، وأن الفوضى هي من المكونات الأساسية للنظام الدولي. وبهذا فالحروب تندلع نتيجة هذا النظام وليس نتيجة الشر في الطبيعة الإنسانية. غير أن هذا التصور لا يتفق ورؤية"هيدلي بول"Hedly Bull للنظام الدولي. فهذا الأخير

> "لا يمكن ببساطة أن ندرسه حصرا في نطاق مادي على أنه بنية فوضوية لا مركزية تتنوع فيها وحدات غير متميزة وظيفيا وفق مبدأ توزيع القوة حصرا ودون سواه. ويرتبط [بـ]هذا

النظام ارتباطا وثيقا ومركزيا، تركيب نشأ تاريخيا ولا يزال يتطور من أفكار التفاهم والأحكام والمعايير والتطلعات المتبادلة."[6]

2. فوضوية النظـام الدولي: رؤية نقدية.

إن الأساس النظري الذي تقوم عليه الرؤية الواقعية للنظام الدولي هو الطبيعة الفوضوية لهذا الأخير. كما أن المنطق العام في الأدبيات العقلانية للعلاقات الدولية قد شُيِّد على أساس هذا الافتراض القاعدي الذي تمَّ أخذه كحقيقة مطلقة. والذي يجد أصوله في تحليلات كل من هوبز وروسو ونيتشة وماكيافيلي، الذين حاولوا بنظرة فلسفية تحديد الطبيعة الأساسية للإنسانية.

فطبقا لهوبز، الإنسان شرير وأناني بطبعه. وعليه يعيش الأفراد فيما أسماه "حالة الطبيعة"، حيث لايوجد قانون ولا يتوافر حكم أخلاقي أو سياسي. وبالتالي فالأفراد يتصارعون دائما وأبدا لأجل البقاء. هذا الخوف من العنف والموت سيدفع بالأفراد العقلانيين إلى تفضيل العيش في ظل قوة عليا مطلقة، بدلا من العيش في عالم تعمه الفوضى، وهو ما أطلق عليه "الليفياثان"Léviathan

كما أن نظرة "هانز مورجانتو"Hans Morgenthau للسياسة الدولية على أنها "الصراع الطبيعي لأجل القوة" تعود إلى تأثره بفلسفة "نيتشه" حول طبيعة الإنسان الشغوف بالقوة وحب السيطرةAnimus Dominando [7]

إن غياب الليفياثان على الصعيد الدولي سيجعل-بحسب الواقعيين-حالة الطبيعة تسود، أين يصبح البقاء معتمدا على حجم القوة التي تسنده. فقد كتب "والتز"Waltz يقول:

"إن بعض الدول يمكن أن تستخدم القوة مع الوقت، وعلى جميع الدول أن تستعد لفعل ذلك أيضا أو ستعيش تحت رحمة القوة العسكرية لجيرانها. إن دولة الطبيعـة هي دولة الحـرب."[8]

هذه الإرادة اللازمة لكل دولة بأن تصبح قوية لحماية بقائها، قد أوجدت حتما -بهذا المنطق- تصعيدا مستمرا في تملك القوة. وهو ما يعرفه الواقعيون بـ "المأزق الأمني"Security Dilemma.

من منطلق هذه الافتراضات الفلسفية الأساسية التي أُسِّست لا سيما من طرف هوبز، شيّد المنظرون العقلانيون بدورهم الإطار النظري الواقعي. لكن هوبز أو روسو مثلا لم ينقلوا حدثا تمت

رؤيته، بل جاءت أعمالهم عن الليفياثان والعقد الاجتماعي كثمرة لتفسيرات وتمثُّلات نظرية. وحتى "ثوسيديدس"Thucydides في كتابه The History of Peloponisian War يقر بأن الأحداث والمحاورات التي يعرضها ما هي إلا إعادة بناء فكري تم من قبله.

وبهذا يكون منظروا الميتامنظار العقلاني قد وقعوا ضحية "انزلاق فكري"؛ فحالة الطبيعة الهوبزية ليست نتاج "أنثربولوجيا تاريخية امبريقية"، بل لا تعدو كونها محاولة فلسفية في التفكير السياسي. ويؤكد "ميكائيل ويليامز"Michael C. Williams بأن التفسيرات التقليدية لتحليلات هوبز وروسو-والمؤسِّسة حسبه للمنطق الواقعي والليبرالي-تستند إلى سوء فهم للسياقات contextes المكوّنة لكل تحليل وللتحليل في حد ذاته. وهذا راجع إلى سلسلة من الأخطاء المفاهيمية والمنهجية والفلسفية. (9)

إن العقد الاجتماعي ليس حدثا بعينه. إنه محاولة تأملية لفهم ظهور الدولة. وهو ناجم عن "المعرفة العقلانية"(10)، بيد أن منظري الميتامنظار العقلاني يجنحون إلى اعتباره تفسيرا امبريقيا لظاهرة نشوء الدولة. وعليه فمن الخطأ الجسيم اعتبار محاولة تفسيرية فلسفية كحقيقة امبريقية ثابتة ومُشاهَدة وغير قابلة للمساءلة. كما أن سحب الليفياثان على المستوى الدولي [الليفياثان الدولي] غير ذي معنى، لأن حالة الطبيعة الموجودة بين الأفراد لا يمكن أن تكون مماثلة للحالة الموجودة بين الدول. فإذا كانت كذلك، كيف نستطيع شرح تكوين الدولة؟ بعبارة أخرى: كيف يستطيع الأفراد السمو عن عدم الثقة والحسابات العقلانية للمصلحة الخاصة للانضمام إلى هذا العقد. وإذا كانت الفرضية العقلانية وهي أن النظام الدولي يتطابق وحالة الطبيعة الهوبزية ولا يستطيع السمو عن عدم الثقة والمصالح الأنانية، فتكوين الدولة الهوبزية بحد ذاتها تكون منطقيا مستحيلة. (11)

وبما أن الدولة توجد في نظام من المساعدة الذاتية، وتسعى إلى "النفعية العقلانية القصوى"، فكيف يمكن لدولة أن تثق بأخرى؟ وأي دولة يمكن أن تكون مستعدة للتعاقد أولا؟ وبالتالي يصبح الليفياثان الدولي مستحيل التحقق. (12)

كما أن أنصار علم الاجتماع التاريخي-الذين يهتمون بكيفية كون الهياكل التي نعتبرها شيئا مسلما به بوصفها "طبيعية"، هي منتجات مجموعة من العمليات الاجتماعية المعقدة-يرفضون الرؤية البسيطة لـ "الدولة" كما يفهمها الواقعيون،

> "[...] ويقوضون من حيث الأساس الفكرة القائلة: إن الدولـة هي الدولة، فالدول تختلف وليست متماثلة وظيفيا كما تصورهـا الواقعية الجديدة. ثم إن علماء الاجتماع التاريخي يبينون أنه لا يمكن أن يوجد تفريق بين المجتمعات المحلية والدوليـة، فهـي مترابطـة لا محالة. ولذا فمن غير الدقيق الادعاء كما تفعل الواقعية الجديدة بأنه يمكن فصل بعضها عن بعض. فلا يوجد ما يسمى 'النظام الدولي' المتكامل ذاتيا، والقادر بالتالي على ممارسة تأثير حاسم في سلوك الدول."[13]

ومع هذا تبقى الواقعية كمقاربة نظرية للسياسة الدولية لها تاريخها الطويل والمتميز بعرضها التفسيري المنسجم. كما أن اعتمادها "قاعدة الشح"[14] يمثل أعظم إنجازاتها وإن كان لا يضمن تفسيرا لكل الظواهر في السياسة الدولية. غير أن بساطتها ونفعيتها جعلت الكثير من صناع السياسة والمنظرين على حد سواء يثنون عليها.

من المؤكد أن المقاربة الواقعية قد سيطرت بشكل أو بآخر على كل من الفكر الأكاديمي للعلاقات الدولية وعلى تصورات صانعي السياسة، على الأقل في مرحلة ما. فقد اعتبرت النظرية السائدة [15] في حقل العلاقات الدولية، لمنحها أقوى تفسير لحالة الحرب التي مثلت الظرف الحتمي والدائم للحياة الدولية. [16] كما أن من أكبر العوامل الداعمة لهيمنة النظرية الواقعية هو أنها تصور العالم الذي نفهمه بالفطرة. [17]

الهوامش:

1 غراهام إيفانس وجيفري نوينهام،مادة (الواقعية)،مرجع سابق، ص ص.451-454

2 وفقا لـ' Waltz' تعرف البنية على أنها الطريقة التي تنتظم بها أجزاؤها، فهي عامل مهم في تحديد طبيعة الفعل. وتتشكل بنية النظام من ثلاث عناصر:

(1)المبدأ المرتب[Principe ordonnateur]؛ويتمثل في الهرمية[Hiérarchie]في النظام الداخلي والفوضى[Anarchie]في النظام الدولي.؛ (2)الاختلاف الوظيفي بين الوحدات؛(3)توزيع القوة بين هذه الوحدات.

3 Alex Macleod, "Néoréalisme," In Théories des relations internationales : Contestations et résistances, Op.cit., p.65.

4 أحمد علي سالم، مرجع سابق، ص ص.120-121.

5 جون بيليس،"الأمن الدولي في حقبة ما بعد الحرب الباردة،" في عولمة السياسة العالمية، مرجع سابق، ص.417.

وتشتق كلمة فوضى الإنجليزية 'Anarchy 'من كلمة 'Anarkhod" اليونانية ومعناها "من دون حاكم". وهي تستعمل للدلالة على غياب حكم يحفظ السلام. ويستخدم دارسوا السياسة الدولية هذه العبارة على نحو أكثر دقة؛ فيصفون السياسة الدولية بالفوضوية، لأنه ما من دولة أو تحالف دول يتمتع بالسلطة المطلقة على كامل النظام. فالدول سيدة ومستقلة ومسؤولة عن مصيرها ولو أنها لا تتحكم به. أنظر: مارتن غريفيثس وتيري أوكالاهان، مادة(الفوضى)، مرجع سابق، ص ص.324-326.

6 أندرو هاريل،"المجتمع الفوضوي بعد خمسة وعشرين عاما (مقدمة الطبعة الثالثة)،"في هيدلي بول، المجتمع الفوضوي: دراسة النظام في السياسة العالمية، تر. مركز الخليج للأبحاث (دبي: مركز الخليج للأبحاث،2006)، ص.13.

7 Mark Busser, Op.cit., p.2

8 Shibashis Chatterjee,"Neo-realism,Neo-liberalism and security," International Studies 125(2003):p.127.

9 Michael C. Williams, "Hobbes and international relations: a reconsideration," International Organization 2 (printemp, 1996): pp.225-226.

10 المعرفة العقلانية هي سلسلة من التعريفات الصورية والقواعد العلائقية.

11 Ibid., pp.225.

12 Ibid.

13 ستيف سميث،مرجع سابق،ص ص.381-382.

14 تستخدم عبارة قاعدة الشح أو شح النظرية The Parsimony of the Theory للإشارة إلى أن عناصر قليلة تستخدم لتفسير أشياء عدة.

15 يبرز تحليل إحصائي لأدبيات العلاقات الدولية في خمسينيات وستينيات القرن العشرين هيمنة النموذج الواقعي على ما سواه، من حيث الاعتماد الكاسح على الافتراضات الجوهرية للواقعية. وتفيد نتائج التحليل بأن أكثر من 90% من الفرضيات الواقعية التي بلغت سبعة آلاف فرضية قد زيفت. (John Vasques ,1979).

16 تيموثي دن، "الواقعية،" في عولمة السياسة العالمية، مرجع سابق، ص.227.

17 ستيف سميث، مرجع سابق، ص.351.